تفسير سورةُ النور
من آية (35) إلى آية (39)
اللقاء الثامن

المعنى الإجمالي من آية (32) إلى آية (34):

يقولُ الله تعالى مرشدًا عبادَه إلى ما يُعِينُ على العفافِ: وزوِّجوا -أيُّها المؤمنونَ- مَن لا زوجَ له مِن الأحرارِ والحرائرِ، ومِن مماليكِكم الصَّالحينَ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، إن يكُنْ هؤلاء الذين تُنكِحونَهم فقراءَ، يُغْنِهِمُ اللهُ مِن واسِعِ رِزقِه، واللهُ واسِعُ الفَضلِ، جَوادٌ كريمٌ، عليمٌ بأحوالِ العِبادِ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى بإعانةِ المماليكِ على ما يُحرِّرُهم مِن الرِّقِّ، فيقولُ: والذين يريدونَ أن يتحَرَّروا مِن رِقِّ العبوديَّةِ بمُكاتبتِكم، فكاتِبوهم على قَدرٍ مِن المالِ؛ ليَصيروا أحرارًا، إن عرَفتُم منهم قُدرةً على كسبِ المالِ والوفاءِ، وأعطوهم مِمَّا أعطاكم اللهُ مِن المالِ؛ ليَستعينوا به على الأداءِ. ولا تُجبِروا إماءَكم على الزِّنا؛ طلبًا للمالِ بطريقِ الفاحشةِ، إن أرَدْنَ التعفُّفَ عن مُقارفةِ الفاحشةِ، ومَن يُجبِرْهنَّ على الزِّنا، فإنَّ الله تعالى غفورٌ لهنَّ، رحيمٌ بهنَّ، والإثمُ على مَن أكرَههنَّ.

يقولُ الله تعالى: ولقد أنزَلْنا إليكم آياتٍ واضحاتٍ موضِّحاتٍ، ومَثَلًا بمَن سبقَكم مِن الأُمَمِ؛ لتتَّعِظوا وتعتَبِروا، وعِظةً وذِكرى للمتَّقين.

(أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ)

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿35﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الشنقيطي: لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى ببَعضِ الأُمورِ التي لا غِنَى للنَّاسِ عنها، ونَهى عن بَعضِ الأُمورِ التي بارتِكابِها يَحصُلُ الضَّرَرُ على المجتمَعِ والأفرادِ، وحَثَّ على بَعضِ الآدابِ؛ بَيَّنَ سُبحانَه أنَّ امتِثالَ تلك الأوامِرِ، واجتِنابَ تلك النَّواهي، والتِزامَ تلك الآدابِ: يُنَوِّرُ لها قُلوبَ بَعضِ عِبادِه؛ فيُوفِّقُهم لها، ويَطمِسُ قُلوبَ آخَرينَ؛ فلا يَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويَرتَكِبونَ نواهيَه، فضَرَبَ للمُوَفَّقِ هذا المثَلَ، وضَرَبَ للضَّالِّينَ المثَلَ الآتيَ بعدَ ذلك .

قال ابن القيم: وأيضًا لَمَّا كان غَضُّ البصرِ يَكْسِبُ القَلبَ نُورًا، كما أنَّ إطلاقَه يُلْبِسُه ظُلمةً؛ ذَكَرَ اللهُ سبحانَه آيةَ النُّورِ عَقِيبَ الأمرِ بغَضِّ البصرِ، فقال تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي: اللهُ مُنَوِّرُ السَّمواتِ والأرضِ، وهادي مَن فيهما، ومُدبِّرُ أمورِهم، وهو بذاتِه نورٌ جلَّ وعلا. موسوعة التفسير

وقال السَّعدي: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الحسِّيُّ والمعنويُّ؛ وذلك أنَّه تعالى بذاتِه نورٌ، وحِجابُه نورٌ -الذي لولا لُطفُه لأحرَقَت سُبُحاتُ وَجهِه ما انتهى إليه بصَرُه مِن خَلقِه-، وبه استنار العَرشُ والكرسيُّ، والشَّمسُ والقَمَرُ والنورُ، وبه استنارت الجَنَّةُ. وكذلك النورُ المعنويُّ يَرجِعُ إلى الله؛ فكتابُه نورٌ، وشَرعُه نورٌ، والإيمانُ والمعرفةُ في قُلوبِ رُسُلِه وعبادِه المؤمنين نورٌ. فلولا نورُه تعالى لتَراكمت الظُّلُمات؛ ولهذا كُلُّ محَلٍّ يَفقِدُ نورَه، فثَمَّ الظُّلمةُ والحَصرُ).

وقال ابن تيميَّة: (اللهُ تعالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ؛ فإنَّه ليس كشَيءٍ مِنَ الأنوارِ، كما أنَّ ذاتَه ليست كشيءٍ مِنَ الذَّواتِ).

قال ابنُ القيِّم: (اللهُ سبحانَه وتعالى سمَّى نفسَه نورًا، وجعل كتابَه نورًا، ورسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نورًا، ودينَه نورًا، واحتجَبَ عن خلقِه بالنورِ، وجعَلَ دارَ أوليائِه نورًا تتلألأ... وقد فُسِّر: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [النور: 35] الآيةَ: بكونِه مُنَوِّرَ السَّموات والأرضِ، وهاديَ أهلِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فبُنورِه اهتدى أهلُ السَّمواتِ والأرضِ، وهذا إنَّما هو فِعلُه، وإلَّا فالنورُ الذي هو من أوصافِه قائمٌ به، ومنه اشتُقَّ له اسمُ النورِ الذي هو أحدُ الأسماءِ الحُسنى. والنورُ يُضافُ إليه سُبحانَه على أحدِ وَجهَينِ: إضافةُ صِفةٍ إلى موصوفِها، وإضافةُ مَفعولٍ إلى فاعِلِه. فالأوَّلُ: كقَولِه تعالى: وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ... [الزمر: 69] الآيةَ، فهذا إشراقُها يومَ القيامةِ بنورِه تعالى إذا جاء لفَصلِ القَضاءِ... وفي مُعجَمِ الطَّبَرانيِّ والسُّنَّةِ له، وكتابِ عُثمانَ الدَّارميِّ، وغيرِها، عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: «ليس عند ربِّكم ليلٌ ولا نهارٌ؛ نورُ السَّمواتِ والأرضِ مِن نورِ وَجهِه»، وهذا الذي قاله ابنُ مسعودٍ رَضِيَ الله عنه أقرَبُ إلى تفسيرِ الآيةِ مِن قَولِ مَن فسَّرها بأنَّه هادي أهلِ السَّمواتِ والأرضِ، وأمَّا مَن فسَّرها بأنَّه مُنَوِّرُ السَّمواتِ والأرضِ، فلا تنافيَ بيْنه وبيْن قَولِ ابنِ مَسعودٍ، والحَقُّ أنَّه نورُ السَّمواتِ والأرضِ بهذه الاعتباراتِ كُلِّها).

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعو مِنَ اللَّيلِ: ((اللهُمَّ لك الحمدُ، أنت ربُّ السَّمواتِ والأرضِ، لك الحمدُ أنت قَيِّمُ السَّمواتِ والأرضِ ومَن فيهنَّ، لك الحمدُ أنت نورُ السَّمواتِ والأرضِ، قولُك الحقُّ، ووعدُك الحقُّ، ولِقاؤُك حَقٌّ، والجنَّةُ حقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعةُ حَقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصَمتُ، وإليك حاكَمتُ؛ فاغفِرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرتُ وأعلَنتُ، أنت إلهي لا إلهَ لي غيرُك))رواه البخاري.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلَق خَلْقَه في ظُلمةٍ، فألقَى عليهم مِن نُورِه، فمَن أصابَه مِن ذلك النُّورِ اهتدَى، ومَن أخطأه ضلَّ؛ فلذلك أقولُ: جفَّ القَلمُ على عِلمِ اللهِ)) صحيح سنن الترمذي.

(مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) أي: مَثَلُ نورِ الله في قَلبِ المؤمنِ الذي هداه الله مثلُ كَوَّةٍ غيرِ نافذةٍ، وُضِع فيها مِصباحٌ. موسوعة التفسير

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) [إبراهيم: 24]

والآيات الشرعية تضيء الصدور، والبيوت والمجتمعات والاكوان فتذهب ما بها من ظلمات، ظلمة الجهل والمعاصي والشرك، والنور يجمع في الصدور، كما الكوة تجمع النور.

لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك(السعدي)

قال ابن عاشور: والضَّميرُ في قولِه: نُورِهِ عائدٌ إلى اسمِ الجَلالةِ، أي: مَثَلُ نورِ اللهِ سُبحانَه، أي: مثَلُه في إنارةِ عُقولِ المهتدينَ.

قال ابن القيم: أي: مَثَلُ نورِه في قَلبِ عَبدِه المؤمنِ الذي امتَثَل أوامِرَه واجتَنَب نواهيَه، وإذا استنار القَلبُ أقبلتْ وفودُ الخيراتِ إليه مِن كُلِّ ناحيةٍ، كما أنَّه إذا أظلَم أقبَلَت سحائِبُ البلاءِ والشَّرِّ عليه مِن كُلِّ مكانٍ، فما شِئتَ مِن بِدَعٍ وضلالةٍ، واتِّباعِ هَوًى، واجتنابِ هُدًى، وإعراضٍ عن أسبابِ السَّعادة، واشتغالٍ بأسبابِ الشَّقاوةِ، فإنَّ ذلك إنَّما يَكشِفُه له النورُ الذي في القلبِ، فإذا نَفِدَ ذلك النورُ بَقِيَ صاحِبُه كالأعمَى الذي يجوسُ في حنادِسِ الظَّلامِ.

قال تعالى: (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) [الزمر: 22].

(الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ) أي: وهذا المِصباحُ داخلَ زجاجةٍ تُحيطُ به. موسوعة التفسير

إنْ قيل: لِمَ خَصَّ الزُّجاجةَ بالذِّكرِ؟ قال السمعاني: فالجوابُ: أنَّه قيل: إنَّما ذَكَرَ الزُّجاجةَ؛ لأنَّ المِصباحَ فيها أضوأُ. وقيل: ذَكَرَ الزُّجاجةَ؛ لأنَّها إذا انكَسَرت لا يُنتفَعُ منها بشَيءٍ، كذلك القَلبُ إذا فسَد لا يُنتفَعُ منه بشَيءٍ، قال ابن القيم: ولأنَّها جمعت أوصافًا هي في قلبِ المؤمنِ، وهي الصَّفاءُ والرِّقَّةُ، فيَرى الحقَّ والهدى بصفائِه، وتحصُلُ منه الرأفةُ والرَّحمةُ والشَّفَقةُ برِقَّتِه، ويجاهِدُ أعداءَ الله تعالى ويُغلِظُ عليهم ويشتَدُّ في الحَقِّ ويَصلُبُ فيه بصلابتِه، ولا تُبطِلُ صِفةٌ منه صِفةً أخرى ولا تُعارِضُها، بل تُساعِدُها وتُعاضِدُها (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ).

(الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ) أي: الزُّجاجةُ صافيةٌ وبهيَّةٌ كأنَّها كوكَبٌ صافٍ حَسَنٍ مُضيءٍ، وهكذا قَلبُ المؤمنِ الخالِصِ من الكُفرِ والشَّكِّ، المتطهِّرِ من دَنَسِ المعاصي. موسوعة التفسير

والقلوب كلما ذاقت رقت، رقت حتى تصبح شفافة مثل الزجاج، ترى ما بعد عالم الشهادة، ترى الغيب كأنه شهادة، وإذا أظلم الزجاج بسواد المعاصي والجهل والشرك، أطفأ المصباح، وأعتمت القلوب، وانتكست الفطرة، وانقلبت الحقائق، فأصبح يرى الحق باطل والباطل حق، وإذا ذاق رق فاق حتى علا

في الآفاق، أصبح كأنه كوكب دري، ذاق الآية ثم الآية يسطع نور يضيء ما بين الصدور والافاق، فيهتدي ويهدى به كالكوكب الدري والنجوم، كما محمد -ﷺ-وأصحابه رضوان الله عليهم ومن تبعهم.

قال -عز وجل-: (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) [الأنعام:122]

قال البقاعي: (فإنه إذا كان في زجاجةٍ صافيةٍ انعكَست الأشعةُ المنفصلةُ عنه مِن بعضِ جوانبِ الزُّجاجةِ إلى بعضٍ؛ لِما فيها مِن الصَّفاءِ والشفيفِ، فيزدادُ النورُ، ويبلغُ النهايةَ، كما أنَّ شعاعَ الشمسِ إذا وقَع على ماءٍ أو زجاجةٍ صافيةٍ تضاعَف النُّورُ، حتى إنَّه يَظهرُ فيما يقابلُه مثلُ ذلك النُّورِ).

إن قيلَ: لمَ شبَّهَ بالكواكِبِ، ولم يشَبِّهْ بالشَّمسِ والقَمرِ؟ الجواب: لأنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يلحَقُهما الخُسوفُ والكسوفُ، والكواكِبُ لا يلحَقُها ذلك. الدرر السنية

عن حُذيفةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ "نُقِطَ" فيه نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكَرَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بَيضاءُ، حتى تصيرَ على قَلبينِ؛ على أبيَضَ مِثلِ الصَّفا "الحَجَرِ الأملَسِ الذي لا يَعلَقُ به شَيءٌ" ، فلا تضُرُّه فِتنةٌ ما دامت السَّمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسوَدُ مُرْبادًّا، كالكُوزِ مُجَخِّيًا "مائِلًا مَنكوسًا"، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلَّا ما أُشرِبَ مِن هواه!))رواه مسلم .

(يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) أي: يَستَمِدُّ المصباحُ نورَه مِن زيتِ شَجرةِ زيتونٍ، مُبارَكةٍ كَثيرةِ المنافِعِ، لا شرقيَّةٍ تصيبُها الشَّمسُ عند الشُّروقِ فقط، ولا غربيَّةٍ تصيبُها الشَّمسُ عند الغروبِ فقط، بل الشَّمسُ تصيبُها طوالَ النَّهارِ؛ فيكونُ زيتُها أصفى وأجوَدَ وأشدَّ إضاءةً. موسوعة التفسير

وقال ابنُ القيِّمِ: (كذلك مادَّةُ نورِ المِصباحِ الذي في قلبِ المؤمنِ هو مِن شجرةِ الوحيِ التي هي أعظَمُ الأشياءِ بَرَكةً، وأبعَدُها مِن الانحرافِ، بل هي أوسَطُ الأمورِ وأعْدَلُها وأفضَلُها، لم تَنحرِفِ انحرافَ النصرانيَّةِ، ولا انحرافَ اليهوديَّةِ، بل هي وسَطٌ بيْنَ الطرفَينِ المذمومَينِ في كلِّ شَيءٍ، فهذه مادَّةُ مِصباحِ الإيمانِ في قلبِ المؤمنِ).

(يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) أي: يُقارِبُ زَيتُ هذه الشَّجَرةِ المباركةِ أن يضيءَ بنَفسِه ولو لم تمسَسْه نارٌ؛ مِن شدَّةِ صَفائِه وتلألُئِه، فإذا مسَّتْه النارُ أضاء إضاءةً عظيمةً. موسوعة التفسير

(لا شَرْقِيَّةٍ) فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، (وَلا غَرْبِيَّةٍ) فقط، فلا تصيبها الشمس أول النهار، وإذا انتفى عنها الأمران، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيتها، وهذه الفطرة الصافية، يجب أن تتعرض لنور الآيات، ليل نهار لا تغرب عنها حتى الممات، حتى تبقى الفطرة صافية تضيء، لا تطفئها نار الشهوات ولا رياح الشبهات.

ولهذا قال: (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ) من صفائه (الفطرة السليمة) التي تهدي العباد الى خالقهم

سئل اعربي عن دليل وجود الله؟ فقال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على العليم الخبير.

قال -عز وجل-: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) [الأعراف:172-173]

وهذه الفطرة تكاد تهدي صاحبها من غير دليل كما أن الزيت يكاد يضيء من غير نار، فتشع هذه الفطرة مع آيات الله البينات في قلب المؤمن.

قال ابنُ جريرٍ: (وعُنِيَ بقَولِه: يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ أنَّ حُجَجَ اللهِ تعالى ذِكرُه على خَلقِه تَكادُ مِن بَيانِها ووُضوحِها تُضيءُ لِمَن فكَّر فيها، ونظَرَ، أو أعرَضَ عنها ولها. وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ يقولُ: ولو لم يَزِدْها الله بيانًا ووضوحًا بإنزالِه هذا القرآنَ إليهم، مُنَبِّهًا لهم على تَوحيدِه، فكيف إذا نبَّهَهم به، وذكَّرهم بآياتِه، فزادهم به حُجَّةً إلى حُجَجِه عليهم قبْلَ ذلك؟!).

(نُورٌ عَلَى نُورٍ) أي: اجتمعُ نورُ النَّارِ مع نور الزَّيتِ، وهكذا المؤمِنُ قَلبُه مضيءٌ، يكادُ يعرِفُ الحَقَّ بفِطرتِه وعَقلِه، فإذا نزلت آياتُ الوحيِ فباشرَت قلبَه وخالطت بَشاشتَه، ازداد نورًا بالوَحيِ على نورِ الإيمانِ الذي فطَرَه اللهُ تعالى عليه. موسوعة التفسير

قال ابن القيّم: (النورُ على النورِ: نورُ الفِطرةِ الصحيحةِ والإدراكِ الصحيحِ، ونورُ الوَحيِ والكِتابِ، فيَنضافُ أحَدُ النُّورَينِ إلى الآخَرِ؛ فيَزدادُ العبدُ نورًا على نورٍ... فيَتَّفِقُ عندَه شاهِدُ العقلِ والشرعِ، والفِطرةِ والوَحيِ، فيُريهِ عقلُه وفِطرتُه وذَوقُه أنَّ الذي جاء به الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو الحقُّ، لا يَتعارَضُ عندَه العقلُ والنقلُ الْبَتَّةَ، بل يَتصادَقانِ ويَتوافَقانِ).

وقال السعديُّ: (وجْهُ هذا المَثَلِ الذي ضرَبه الله، وتطبيقه على حالةِ المؤمِنِ، ونور الله في قلبِه: أنَّ فِطرتَه التي فُطِر عليها بمَنزِلةِ الزَّيتِ الصافي، ففِطرتُه صافيةٌ، مُستعِدَّةٌ للتعاليمِ الإلهيَّةِ، والعملِ المشروعِ، فإذا وصَل إليه العِلمُ والإيمانُ اشتَعَل ذلك النورُ في قلبِه، بمَنزلةِ اشتِعالِ النارِ في فَتيلةِ ذلك المِصباحِ، وهو صافي القلبِ مِن سوءِ القَصدِ، وسوءِ الفَهمِ عن الله، إذا وصَل إليه الإيمانُ أضاء إضاءةً عظيمةً؛ لصفائه مِن الكُدوراتِ، وذلك بمَنزِلةِ صفاءِ الزُّجاجةِ الدُّرِّيَّةِ؛ فيَجتمِعُ له نورُ الفِطرةِ، ونورُ الإيمانِ، ونورُ العِلمِ، وصَفاءُ المعرفةِ؛ نورٌ على نورِه).

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)

مُناسَبتُها لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان الإخبارُ عن مُضاعفةِ هذا النُّورِ موجِبًا لاعتقادِ أنَّه لا يخفَى عن أحدٍ، أشار إلى أنَّه -بشُمولِ عِلمِه، وتمامِ قُدرتِه- يُعمي عنه مَن يريدُ، مع شِدَّةِ ضيائِه، وعظيمِ لألائِه، فقال

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) أي: يوفِّقُ الله لنورِه مَن يختارُه ممن يعلمُ زكاءَه وطهارتَه. موسوعة التفسير

قال الشوكاني: (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِه، أي: هدايةً خاصَّةً مُوَصِّلةً إلى المطلوبِ، وليس المرادُ بالهدايةِ هنا مجرَّدَ الدَّلالَةِ).

وقال الواحدي: (قَولُه تعالى: يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ قال ابنُ عبَّاسٍ: لدينِه الإسلامِ، وإنْ شِئتَ قُلتَ: للقُرآنِ، وإنْ شِئتَ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، على اختِلافِ التَّفسيرِ في قَولِه تعالى: مَثَلُ نُورِهِ).

ولا سبيل إلى الفطرة المستقيمة النقية، ولا إلى الآيات البينات إلا بالله تبارك وتعالى، قال العز بن عبد السلام رحمه الله: والله لن يصلوا إلى شيء بغير الله فكيف يوصل إلى الله بغير الله؟ قال: فإذا كان النور يهدي إلى الله فإنه لا ينكر أن يطلب إلا من الله.

إن العبد إذا تأمل من حرم من هذا النور يعلم أنه فضل من الله، فكم من أستاذ جامعي لا تكاد توجد لغة إلا ويجيدها تتسابق إليه الفضائيات وتتزاحم عليه القنوات وله المال الوفير والجاه العظيم لكن غاب عنه نور الله جل وعلا فلم تكتحل عيناه يوماً بالسجود لرب العالمين... فانظروا فيما وصل إليه، وعما ضل عنه، حتى تعلم أن قول الله: (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) [النور:35]، يستوجب أن يستكين العبد بين يدي مولاه، يسأل الله جل وعلا بكرة وعشية أن يهديه إلى نوره المبين وإلى صراطه المستقيم قال الله –جل وعلا–: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [الشورى: 52].

كما قال تعالى: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ [الحج: 16].

وقال عزَّ وجلَّ: قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [المائدة: 15، 16].

وقال سُبحانَه: لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [النور: 46].

(وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ) أي: ويُبيِّن اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ؛ ليفهَموا معانيَها، ويُدرِكوا مراميَها، كما مثَّل لهم نورَ القرآنِ في قلبِ المؤمنِ. موسوعة التفسير

قال الطنطاوي: ويضرب الله –تعالى– الأمثال للناس رجاء أن يعتبروا ويتعظوا ويتذكروا ما أمرهم –سبحانه–بتذكره إذ ضرب الأمثال تقريب للبعيد، وتقرير للقريب، وتصوير للمعاني المعقولة بالصور المحسوسة.

كما قال تعالى: وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ [العنكبوت: 43].

وقال سُبحانَه: وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الحشر: 21].

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أي: واللهُ محيطٌ عِلمًا بجميعِ الأشياءِ، لا يخفَى عليه شَيءٌ، ومِن ذلك عِلمُه بمَن هو قابلٌ للهُدى، ومَن هو مُصِرٌّ على ضلالِه، ومِن ذلك عِلمُه بما يَضرِبُ مِن الأمثالِ، فهو ضَربُ مَن يعلَمُ حقائِقَ الأمورِ وتفاصيلَها، وأنَّها مَصلحةٌ للعبادِ، فليكُنِ اشتغالُكم بتدبُّرِها وتعقُّلِها، لا بالاعتراضِ عليها أو بمعارَضتِها؛ فهو سُبحانَه يعلَمُ وأنتم لا تعلَمونَ. موسوعة التفسير

المِشكاةُ صَدرُ المؤمنِ، والزُّجاجةُ قلبُه، وشَبَّه قلبَه بالزُّجاجةِ؛ لرِقَّتِها وصَفائِها وصَلابتِها، وكذلك قلبُ المؤمنِ فإنَّه قد جمَع الأوصافَ الثلاثةَ؛ فهو يَرحمُ ويُحسنُ ويتحنَّنُ ويُشفقُ على الخَلقِ برِقَّتِه. وبصَفائِه تَتجلَّى فيه صُوَرُ الحقائقِ والعُلومِ على ما هي عليه، ويُباعِدُ الكَدرَ والدَّرَنَ والوَسخَ بحسَبِ ما فيه مِن الصَّفاءِ، وبصَلابتِه يَشتدُّ في أمرِ الله تعالى، ويَتصلَّبُ في ذاتِ الله تعالى، ويُغلظُ على أعداءِ الله تعالى، ويَقومُ بالحقِّ لله تعالى. والمصباحُ هو نورُ الإيمانِ في قلبِه، والشجرةُ المباركةُ هي شجرةُ الوحيِ المتضمِّنةُ للهُدَى ودِينِ الحقِّ، وهي مادَّةُ المِصباحِ التي يتَّقدُ منها. والنورُ على النورِ: نورُ الفِطرةِ الصَّحيحةِ والإدراكِ الصحيحِ، ونورُ الوحيِ والكِتابِ؛ فيَنضافُ أحدُ النُّورينِ إلى الآخَرِ فيَزدادُ العبدُ نورًا على نورٍ.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ﴿36﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الشنقيطي: لَمَّا ضَرَب اللهُ المَثَلَ لهذا النُّورِ، جَعَل ظَرْفَه أحسَنَ البِقاعِ.

قال السعدي: وأيضًا لَمَّا كان نورُ الإيمانِ والقُرآنِ أكثَرُ وقوعِ أسبابِه في المساجِدِ، ذكَرَها اللهُ تعالى مُنَوِّهًا بها، فقال تعالى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ) أي: في مَساجِدَ أمرَ اللهُ أن تُرفَعَ حِسًّا في البناءِ، وتُرفَعَ معنًى بتَعظيمِها وتَطهيرِها وتَنزيهِها عن كلِّ ما لا يَليقُ بها؛ مِن الرَّوائِحِ الكريهةِ، والأقوالِ السَّيِّئةِ، وغيرِ ذلك. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: في تعقيبِ المثَلِ بذكرِ كونِ المساجِدِ ظرفًا لذلك النُّورِ -على أحدِ الأقوالِ-؛ تنبيهٌ على أنَّ صَقالةَ القَلبِ تكونُ بتزويدِه بالطَّاعةِ.

(وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) أي: وأذِنَ اللهُ لعِبادِه أن يَذْكُروا في المساجِدِ اسمَه وحْدَه لا شريكَ له. موسوعة التفسير

وقال ابن عطية: (وذكرُ اسْمِه تعالى، هو بالصلاةِ والعبادةِ قولًا وفعلًا).

قال السعدي: هذان مجموعُ أحكامِ المساجِدِ، فيدخُلُ في رَفعِها بناؤُها وكَنسُها وتنظيفُها مِن النَّجاسةِ والأذى، وصونُها مِن المجانينِ والصِّبيانِ الذين لا يتحَرَّزونَ عن النَّجاسةِ، وعن الكافِرِ، وأن تُصانَ عن اللَّغوِ فيها، ورَفعِ الأصواتِ بغيرِ ذِكرِ الله، وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يدخُلُ في ذلك الصَّلاةُ كُلُّها؛ فرضُها ونَفلُها، وقراءةُ القرآنِ، والتسبيحُ، والتهليلُ، وغيرُه من أنواعِ الذِّكرِ، وتعلُّمُ العِلمِ وتعليمُه، والمذاكرةُ فيها، والاعتكافُ، وغيرُ ذلك مِن العباداتِ التي تُفعَلُ في المساجِدِ؛ ولهذا كانت عمارةُ المساجِدِ على قِسمَينِ: عمارةِ بُنيانٍ وصيانةٍ لها، وعِمارةٍ بذكرِ اسمِ الله، مِن الصَّلاةِ وغيرِها، وهذا أشرَفُ القِسمَينِ؛ ولهذا شُرِعَت الصَّلواتُ الخَمسُ والجُمُعةُ في المساجِدِ.

ولهذا كان مسجد الرسول مبنياً بالجريد والنخل، ومع ذلك كانت عمارته أعظم من اليوم، وإن كانت عمارته الحسية اليوم أعظم من ذلك اليوم.

كما قال تعالى: وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ [الأعراف: 29].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما اجتمَعَ قَومٌ في بَيتٍ مِن بُيوتِ اللهِ، يتلُونَ كِتابَ الله، ويَتدارَسونَه بيْنهم، إلَّا نزلتْ عليهمُ السَّكينةُ، وغَشِيَتْهمُ الرَّحمةُ، وحفَّتْهمُ الملائِكةُ، وذكَرَهمُ اللهُ فيمَن عِندَه)) رواه مسلم

(يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) أي: يُسبِّحُ للهِ بإخلاصٍ في المساجِدِ في أوَّلِ النَّهارِ وفي آخِرِه. موسوعة التفسير

❁قيل: المرادُ: صلاةُ الصُّبحِ وصلاةُ العَصرِ. ❁وقيل: المرادَ الصَّلواتُ المفروضةُ، وأنَّ التي تُؤدَّى بالغَداةِ صَلاةُ الصُّبحِ، والتي تُؤدَّى بالآصالِ صَلاةُ الظُّهرِ والعَصرِ والعِشاءَينِ.

قال السعدي: (يدخُلُ في ذلك التَّسبيحُ في الصَّلاةِ وغَيرِها؛ ولهذا شُرِعت أذكارُ الصَّباحِ والمساءِ وأورادُها عندَ الصَّباحِ والمساءِ).

وقال ابنُ عثيمين: (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا أعمٌّ مِن كَونِهم يُصَلُّون، بل هم يُسَبِّحون اللهَ بالصَّلاةِ وغَيرِها مِمَّا يكونُ به تنزيهُ اللهِ سُبحانه وتعالى).

✉وخص سبحانه هذين الوقتين لفضلهما وشرفهما كما دلت على ذلك السنة:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: (مَنْ صلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ) متفقٌ عَلَيهِ.

قال ﷺ-: (لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» رواه مسلم. يعني: الفجرَ والعَصرَ.

عن جرير بن عبد الله البجلي – رضي الله عنه – قال: كُنَّا عِنْدَ النبيِّ ﷺ-، فَنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيْلَةً – يَعْنِي البَدْرَ – فَقَالَ: إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كما تَرَوْنَ هذا القَمَرَ، لا تُضَامُّونَ في رُؤْيَتِهِ، فَإنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ لا تُغْلَبُوا علَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا). متفق عليه

كما قال تعالى: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ [ق: 39].

❍هذه الحياة الطيبة في الجنة، أخذت قلوب وعقول السلف الصالح، حتى كانوا رجال مدحهم الله وأثنى عليهم، لحرصهم على لقاء الله ومجاورته في الجنة، قال عنهم

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ ﴿37﴾

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) أي: رِجالٌ لا تَشغَلُهم أيُّ تجارةٍ ولا أيُّ بيعٍ عن ذِكرِ اللهِ تعالى. موسوعة التفسير

❁قيل المرادَ بذكرِ الله هنا: الأذانُ؛ لأنَّهم كانوا إذا سَمِعوا المؤذِّنَ تركوا بيعَهم، وقاموا إلى الصَّلاةِ.

❍قوله (رجال) وصفهم بالرجولة التي تدل على الثناء العظيم الكبير، وليس المراد بالرجال أي ليسوا نساء، بل المراد أنهم رجال عظماء، أصحاب همم عالية وليسوا من الكسالى.

قال ابن كثير: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها، عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم; لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق.

قَولُه: رِجَالٌ قال ابن كثير: فيه إشعارٌ بهِمَمِهم السَّامية، ونيَّاتِهم وعَزائِمِهم العاليةِ، التي بها صاروا عُمَّارًا للمَساجِدِ التي هي بُيوتُ اللهِ في أرضِه، ومواطِنُ عِبادتِه وشُكرِه، وتَوحيدِه وتَنزيهِه، كما قال تعالى: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ [الأحزاب: 23].

الإنسان يفرح بمدح إنسان مثله حين يقول عنه: (إنك رجل) فكيف لا يفرح بمدح الجبار العظيم العزيز؟ في لغة هذا العصر، الرجال من امتلئت جيوبهم، وما قاله ربنا الرجال هم من لم تشغلهم حاجاتهم عن طاعة الله، لم يركعوا لشهواتهم ورغباتهم، بل هم من أخضعوها وذللوها لطاعة الله، فعندهم من قوة الإرادة، رجولة في الكف عن الحرام، والبعد عن كل ما يغضب الله، والسمع والطاعة، والاستقامة على دين الله، ميزان الناس ليس كميزان رب العالمين، في قولهم رجل، عند الناس من يملك الثروة والجاه والمنصب رجل وإن كان اسقط الناس في ميزان الشرع فهو لا خلق ولا دين، أما عند الله فالرجال هم حملة هذا الدين الصادقين المتقين، انظروا في قصة جليبيب "عن أَبِي بَرْزَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ-كَانَ فِي مَغْزًى لَهُ فَأَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: (هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ) قَالُوا: نَعَمْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا، ثُمَّ قَالَ :(هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ) قَالُوا: نَعَمْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا، ثُمَّ قَالَ : (هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ) ، قَالُوا: لَا، قَالَ: (لَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيبًا فَاطْلُبُوهُ)، فَطُلِبَ فِي الْقَتْلَى فَوَجَدُوهُ إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ-، فَوَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ النبي: (قَتَلَ سَبْعَةً ثُمَّ قَتَلُوهُ هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ)، قَالَ فَوَضَعَهُ عَلَى سَاعِدَيْهِ لَيْسَ لَهُ إِلَّا سَاعِدَا النَّبِيِّ قَالَ: فَحُفِرَ لَهُ وَوُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَلَمْ يَذْكُرْ غَسْلًا" مسلم

إِنَّ رَجُلا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ يُقَالُ لَهُ زَاهِرُ بْنُ حَرَامٍ، كَانَ يُهْدِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ-الْهَدِيَّةَ، فَيُجَهِّزُهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: " إِنَّ زَاهِرًا بَادِينَا، وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ "، قَالَ: فَأَتَاهُ النَّبِيُّ -ﷺ-وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَالرَّجُلُ لا يُبْصِرُهُ، فَقَالَ: أَرْسِلْنِي! مَنْ هَذَا؟ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا عَرَفَ أَنَّهُ النَّبِيُّ -ﷺ-جَعَلَ يُلْزِقُ ظَهْرَهُ بِصَدْرِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: " مَنْ يَشْتَرِي هَذَا الْعَبْدَ "؟! فَقَالَ زَاهِرٌ: تَجِدُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ كَاسِدًا، قَالَ: " لَكِنَّكَ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ "، أَوْ قَالَ -ﷺ-: " بَلْ أَنْتَ عِنْدَ اللَّهِ غَالٍ". ابن حبان

"مَرَّ رَجُلٌ علَى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ: ما تَقُولونَ في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أنْ يُنْكَحَ، وإنْ شَفَعَ أنْ يُشَفَّعَ، وإنْ قالَ أنْ يُسْتَمَعَ، قالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِن فُقَرَاءِ المسْلِمِينَ، فَقالَ: ما تَقُولونَ في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أنْ لا يُنْكَحَ، وإنْ شَفَعَ أنْ لا يُشَفَّعَ، وإنْ قالَ أنْ لا يُسْتَمَعَ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هذا خَيْرٌ مِن مِلْءِ الأرْضِ مِثْلَ هذا". صحيح البخاري

(وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ) أي: ولا تَشغَلُهمُ التِّجارةُ ولا البيعُ عن حُضورِ المساجِدِ لأداءِ الصَّلواتِ بحُدودِها في أوقاتِها، ولا عن أداءِ الزَّكاةِ لِمُستحِقِّيها في وقتِها. موسوعة التفسير

كثيراً ما يقرن الله عز وجل بين الصلاة والزكاة، سعادة العبد مبنية على شقين إحسان مع الخالق وإحسان مع المخلوق.

قال السيوطي: فيه أنَّ التِّجارةَ لا تُنافي الصَّلاحَ؛ لأنَّ مَقصودَ الآيةِ أنَّهم يتعاطَوْنَها، ومع ذلك لا تُلهيهم عن الصَّلاةِ وحُضورِ الجماعةِ.

قال السعدي: فهؤلاء الرِّجالُ وإنِ اتَّجَروا وباعُوا واشتَرَوا، فإنَّ ذلك لا محذورَ فيه، لكِنَّه لا تُلهيهم تلك، بأن يقَدِّموها ويُؤثِروها على ذِكرِ اللهِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، بل جَعَلوا طاعةَ اللهِ وعِبادتَه غايةَ مُرادِهم، ونهايةَ مَقصدِهم، فما حالَ بيْنهم وبيْنها رَفَضوه.

ومن أمثلة الرجال الذي عمروا بيوت الله بالصلاة والذكر من السلف الصالح:

- عن نافع (أن ابن عمر كان إذا فاتته العشاء في جماعة أحيا ليلة).
- وعن سعيد بن المسيب سيد التابعين قال (ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد).
- وقال محمد بن واسع تابعي (مكثت أربعين سنة لم تفتني التكبيرة الأولى إلا يوم ماتت أمي).

(يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

مُناسَبتُها لِما قَبلَها: قال السعدي: لَمَّا كان تَرْكُ الدُّنيا شديدًا على أكثَرِ النُّفوسِ، وحُبُّ المكاسِبِ بأنواعِ التِّجاراتِ محبوبًا لها، ويشُقُّ عليها تَرْكُه في الغالبِ، وتتكَلَّفُ من تقديمِ حَقِّ الله على ذلك- ذكرَ ما يدعوها إلى ذلك ترغيبًا وترهيبًا، فقال

(يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) أي: يخافونَ يومَ القيامةِ الذي تتحَرَّكُ وتَضْطَرِبُ فيه قلوبُ النَّاسِ وأبصارُهم؛ مِن شِدَّةِ الأهوالِ والفَزَعِ. موسوعة التفسير

قال الرازي: بَيَّن سُبحانَه وتعالى أنَّ هؤلاء الرِّجالَ وإن تعَبَّدوا بذِكرِ اللهِ والطَّاعاتِ، فإنَّهم مع ذلك موصوفون بالوجَلِ والخَوفِ.

"ففي صحيح البخاري أن أبا بكر ابتنى مسجدا بفناء داره وبرز فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقصّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين". [البخاري: 2297]

- وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أخبره رسول الله -ﷺ-إذا سلك فج، تنحى الشيطان عنه وسلك فج آخر، من شدة تقواه كان كثير البكاء ومن شدة بكائه كان هناك خطين أسودين تحت عينيه من كثرة بكاءه وخشيته من الله ...

في إحدى جولاته الليلية التي كان يقوم بها لتفقد أحوال المسلمين أنه سمع تلاوة آيات قرآنية من إحدى المنازل ومن هذه الآيات " إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ " فوقف ولم تحمله قدماه وجلس على الأرض يبكي فحملوه إلى بيته وتقول الرواية: يعودونه شهراً لا يدرون ما به.

هؤلاء هم الرجال وأمثالهم، يعملون ويخافون، ليس كمن يعصون ويتأملون ويتمنون على الله الأماني، " الكَيِّسُ مَن دان نفسَه وعمِل لما بعدَ الموتِ والعاجِزُ مَن أتبَع نفسَه هَواها وتمَنَّى على اللهِ الأمانِيَّ "الخطب المنبرية.

تقول عائشة –رضي الله عنه– سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ –ﷺ–عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمْ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ! وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ "أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ" "رواه الترمذي

قال ابن عثيمين: وفي هذا ردٌّ على مَن ذَهَبَ مِن الصوفيَّةِ أو غيرِهم إلى أنَّ الأفضلَ في التَّعبُّدِ ألَّا يَقصِدَ الإنسانُ حظًّا لنَفْسِه؛ وإنما يَعْبُدُ اللهَ لذاتِه فقط، لا قصدًا لفضلِه، ولا حذرًا مِن عقابِه! وهذا نبيُّ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وهؤلاء أصحابُه –وهم أكملُ حالًا– قد ذَكَر اللهُ عنهم أنَّهم كانوا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا، وكذلك فإنَّ مَن يَعْبُدُ اللهَ سبحانَه لِينالَ فضْلَه وينجوَ مِن عقابِه، هو يريدُ الوصولَ إلى رِضوانِ اللهِ وإلى رؤيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، التي هي مِن جملةِ النَّعيمِ في الجنَّةِ.

وقال عزَّ وجلَّ: (يُخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) [الإنسان: 7 – 10].

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿38﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أفعالَ هؤلاء الرِّجالِ التي أقبَلوا بها عليه، وأعرَضوا عمَّا عداه؛ بيَّنَ غايتَهم فيها، فقال تعالى

(لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا) أي: أنَّهم فَعَلوا ما فَعَلوا؛ كي يُثيبَهمُ اللهُ يومَ القيامةِ بأحسَنِ ما عَمِلوه في الدُّنيا. موسوعة التفسير

وقال السعدي: بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرته جدا.

وقال ابنُ عاشور: (ويتعلَّقُ قَولُه: لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا بـ يَخَافُونَ، أي: كان خَوفُهم سَبَبًا للجَزاءِ على أعمالِهم النَّاشِئةِ عن ذلك الخَوفِ).

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ [العنكبوت: 7].

(وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) أي: ويَزيدَهمُ اللهُ على ثوابِ أعمالِهم الصَّالحةِ فَوقَ ما يستَحِقُّونَه بأعمالِهم. موسوعة التفسير

قال ابنُ عثيمين: (قَولُه: وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ هذا زائِدٌ على ثوابِ العمَلِ، وذلك ما يَحصُلُ مِن زيادةِ الأعمالِ الصَّالحةِ، وزيادةِ الرِّزقِ في الدُّنيا، وزيادةِ ما يُدَّخَرُ لهم عندَ الله في الجنَّةِ؛ كالنَّظَرِ إلى وَجهِ اللهِ سُبحانَه وتعالى).

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: 40].

(وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) أي: واللهُ يتفضَّلُ على مَن يشاءُ، فيَرزُقُه أرزاقًا كثيرةً لا حدَّ لها ولا عَدَّ. موسوعة التفسير

قال البيضاوي: فيه تَنبيهٌ على كَمالِ القُدرةِ، ونَفاذِ المشيئةِ، وسَعةِ الإحسانِ.

والرزق رزقان: رزق القلوب، ورزق الأبدان، والأول أهم وأعظم، وكثيرًا ما ينصرف الذهن في الرزق إلى رزق الدنيا، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فالرزق مكتوب للمرء وهو في بطن أمه، والرزق للمرء كظله لا يفارقه حتى تنقطع روحه، فما دام الأجل باقيًا فالرزق جارٍ.

الأهم الذي يجب أن نطلبه رزق القلوب، بالإيمان وذكر الرحمن الذي هو حياة للقلوب، وقوت للأبدان وسعادة للأرواح، ونجاة من الأهوال، ونور في الظلمات، يفتح للعبد باب الدخول إلى الله، ويذيب قسوة القلوب، ويعالج الأرواح والأبدان، ويطرد الهموم والأحزان.